الشخصية والتغيرات الحضارية

من المعلوم أن الجهاز الحضارى الذى لا يقدم لحاجات الطفل الأساسية خلال العامين الأولين من حياته سوى الإشباع الناقص غير المنتظم . . . يغرس فيه على الأرجح شعوراً بالخوف والحصر لن يمكنه التخلص منه مدى الحياة . ولنضرب لذلك مثلا ما بيّنه دوبوا Du Bois وكاردنر Kardiner بوضوح وجلاء من أن شخصية البالغ فى جماعة الألوريز Alorese تلك الشخصية التى تمتاز بالخلط والتوجس والخمول لم تأت على سبيل المصادفة مع كون الأطفال فى تلك الجماعة يغذون فى أوقات غير منتظمة ، وينشأون بطريقة غير منظمة . فيتركون بلا غطاء تارة ويحتضنون حتى يوشكوا على الاختناق تارة أخرى ، ويبللون أحياناً ويتركون لصياحهم دون عطف أحايين أخرى ، حسبما يعن لمشاعر الأم أو المربية وأهوائها . ومن ثم فمن الضرورى أن نعنى بأن نغرس فى أطفالنا شعوراً راسخاً بالأمن والطمأنينة ، فتشبع حاجاتهم الجسمية إشباعاً منتظماً ، ونستجيب لحاجاتهم الاجتماعية الآخذة فى النمو استجابة منظمة ، ومن الضرورى أن يمضى النظام الاجتماعى المطلوب دون أن يتطرق إليه خلل .

غير أننا لا يعنينا إرساء أسس الأمن فى الطفولة فحسب ، بل يعنينا كذلك ارتقاء تكامل الشخص فيما يتعلق باتجاهاته وأساليبه فى حل ما يعرض له من مشكلات كما يبدو من خلال نموه حتى بلوغه مرحلة الحياة الرشيدة . وهنا تبدو أهمية النمط الذى وقعت من خلاله تجارب الطفولة وخبراتها . فكيف تنظم هذه التجارب بحيث تنتج لنا شخصاً بالغاً متكاملا آمنا ؟

هناك قطبان يمكن تنظيم أمن الفرد وطمأنينته حولها ، وهما متعارضان بدرجات متفاوتة . فمن جهة يوجد الطراز المعتمد لتنظيم الشخصية ، وهو الموجّه نحو مصادر خارجية للحماية . ومن جهة أخرى يوجد الطراز المستقل ، وهو

يفيد من المصادر الخارجية ، ولكنه ينظم حول نواة صلبة من الإمكانيات الباطنية هى الأساس الدفين لما يوفق إليه الفرد من حلول مرضية لأية مشكلة تواجهه .

ويعتبر مبدأ القرابة بالنسبة للشعوب البدائية وللفئات المتأخرة فى مجتمعنا ، هو الأساس الخارجى لتنظيم الأمن من وجهة نظر الفرد . وهناك قبائل أسترالية يتعذر على أبنائها أن يدخلوا فى أى نوع من العلاقة الاجتماعية مع أى فرد لا يعرفون مركزه من نظام قرابتهم . ولذلك فقد اضطر الإثنولوجيون الذين كانوا يقومون بدراساتهم فى هذه المجتمعات . اضطروا إلى أن يبحثوا عمن يتبناهم من أبناء هذه المجتمعات حتى يستطيعوا أن يقيموا نوعاً من العلاقة الاجتماعية مع محدثيهم . . .

وثمة طريقة أخرى لضمان الأمن الشخصى وهى أن يضع المرء ثقته فى أشياء مادية ويتوقع منها أن تحميه من مواقف الخطر أو المواقف التى لا يبين فيها الخطأ من الصواب . ولعل هذه الطريقة هى أكثر الطرق تحققاً فى حضارتنا . فإذا لم يكن للمرء أصدقاء ولا أقرباء فإنه يستطيع الاعتماد على ممتلكاته : الأرض ، والأسلحة ، والبيوت ، والسيارات ، والمجوهرات ؛ وما إليها . . .

وأخيراً ، نذكر مصدراً خارجياً آخر واحداً ، تقدمه الحضارة ، ومؤداه أن يعتمد الفرد فى تحقيق أمنه على ما فوق الطبيعى . فهو يتحصن بالمشيئة الطيبة للآلهة ضد كل سوء . أو يمارس الطقوس السحرية ليدرأ بها زلات القدر .

ويبدو الآن بوضوح أن حضارتنا قد تغيرت حتى إن أى نظام لتنشئة الطفل يحاول أن يغرس فى شخصيته نظاماً للأمان الشخصى يقوم أولا وآخراً على دعائم القرابة أو الممتلكات أو ما فوق الطبيعة إنما يؤدى به غالباً إلى سوء تكيف خطير وعجز لا يرجى معه الخير . وسوف يأتى اليوم الذى تعود فيه أنماط حضارتنا إلى الاستقرار والتكيف وفقاً لما تقضى حاجات أبناء المجتمع .

ولكن كيف يمكن إعداد الفرد للحياة فى مثل هذه الحضارة المائعة ؟ يخيل إلىّ أن الإجابة هى أن أطفال اليوم يجب أن ينشأوا بحيث يمكنهم أن

ينمّوا منابعهم الباطنية إلى أقصى حد . إذا كان ذلك ممكناً . يجب أن يدرّبوا على القدرة على التكيف . والقدرة على تحليل المواقف الجديدة والاستجابة لها استجابة موفقة . ويجب أن ينشأوا على معرفة نسبية « المطلقات » الخارجية والاعتراف بمقتضيات التكامل الشخصى والاجتماعى . ولا جدال فى أن هذا مثل أعلى يستطيع بعض الأفراد أن يتقربوا منه أكثر من سواهم . إلا أن أولئك الذين يستطيعون تحقيقه مسئولون عن رعاية سواهم ممن لم يستطيعوا .

والمشكلة فى جوهرها هى : أن ندرب أبناء الجيل القادم على الاعتماد على منابعهم الباطنية فى حل مشكلات الحياة . وأن نصنع منهم فى الوقت نفسه شخصيات قادرة على التعاون الاجتماعى ولها من المرونة ما يمكنها من تقدير قيم الأنماط الحضارية الجديدة التى تفوق قيمنا الحاضرة من حيث الأهمية الوظيفية . وسوف تأتى الساعة التى تستطيع فيها الحضارة مرة أخرى أن تمد الفرد بدعائم الأمن التى تلائم التغيرات الجديدة ، وتلك إحدى الوظائف العامة للنظم الحضارية إذا نظرنا للمجتمعات البشرية فى مجموعها . ولكن فى هذه الآونة — والراجح أن هذه الآونة لن تمتد لعدة أجيال من البشرية — يلاحظ أن الحضارة الغربية لم تعد تؤدى هذه المهمة ، ومن ثم فقد وجب أن يقدّم الفرد إلى الحياة الاجتماعية بحيث يستطيع أن يشق طريقه فى عالم وأن يفيد من هذا الطريق ما استطاع . لا من الناحية الفردية فحسب بل ومن الناحية الاجتماعية أيضاً . لا بد للشخص فى هذه الآونة رجلا كان أو امرأة من أن يعتمد على تحليله الخاص للمواقف التى تواجهه . وإنما تعتمد آمال عالمنا على قدرة الإنسان الحديث على أن يبتكر ويضع الدعائم لإقامة تعريف حضارى لهذه المواقف يقلل من شقاء أحفادنا .

وإزاء هذه المهمة يجب على الفرد الذى يعيش فى عصرنا هذا وفى مجتمعنا هذا أن يكون على علم تام بمضمون حضارتنا . لأن هذا المضمون هو المادة التى ينبغى أن تبدأ منها البناء . ولكن ما هو أهم من ذلك . أن يكون على وعى بمبادئ الحضارة بوجه عام . إذا أراد أن يدرأ عن نفسه وعن أحفاده مرحلة مؤلمة من سوء التكيف الشخصى والاجتماعى . وليعلم أن أنماط الحضارة يمكن أن توضع لها التصميمات مقدماً . وأنها قابلة للتحول من نمط إلى آخر .

وأن أنماطاً وأبنية جديدة يمكن للأجيال القادمة أن تكتسبها وسوف تكتسبها ، سواء بالمران الواعى أم بالمحاولة والخطأ . وليعلم كذلك أن ليس ثمة شىء بمستعصٍ على التغير من بين مجموعة التقاليد التى تدعم أنماط الحضارة فى مجتمع ما . . . ولقد حانت ساعة التغير .

جون جلن

"Personality: in Nature, Society & Culture".